سيد عصر المعلوماتية

كان الكمبيوتر الشخصي سيغزو العالم بدون (بيل غيتس). لقد انتصر هو في (مايكروسوفت) عندما حطَّ على عتبة الحقبة الجديدة، وذلك بالجمع بين التقنية المعروفة بشكل كبير وبين التطبيق العملي للأفكار القوية والخارقة في عالم الأعمال والتجارة. إن (غيتس) هو سيد التقنية البرمجية، ولكنه لم يكن عبقرية تقنية: إنه مديرٌ لامع استطاع أن يجد الإلهام حتى في الأزمات.

وقد امتُحنت تلك المقدرة امتحاناً شديداً عندما رافق ظهور (الإنترنت) المثير وسرَّع منه انتشار الكمبيوترات الشخصية إلى المنازل. وقد بلغت استجابة (غيتس) المتأخرة والقوية ذروتها في سنة 1999 والمسمَّى (الأعمال بسرعة الأفكار) وفيه ارتدى (غيتس) حلَّة نبيّ الثورة. ومع ذلك فقد أَدخلت تلك الثورة شركته إلى حقبة زمنية جديدة مليئة بالمعضلات.

فالشبكة الدولية (الإنترنت) تتحدَّى نقاط القوة لدى (مايكروسوفت) كما لم يحدث من قبل. ومع كل هذا فقد كانت مقابلة ومواجهة التحدِّي أمراً حاسماً ودقيقاً بالنسبة إلى أسلوب (غيتس) الواقعي في تحقيق أحلامه ورؤاه القوية. فقد كان الناطق باسم التغيير: كان ممَّن ترتفع أفعاله فتتكلَّم بصوت أعلى من مجرَّد الكلمات، مما جعل منه المحرِّك الرئيسي والرمز الأول لعصر المعلوماتية.

Robert Heller

سيرة حياته

وُلد (ويليام هنري غيتس الثالث) سنة 1955 من عائلة متماسكة حسنة الحال من مدينة (سياتل). وقد أرسلته عائلته إلى (هارفرد) لدراسة القانون (وهو مهنة أبيه). فقصّته ليست قصة ولد فقير انقلب ليصبح فتى صالحاً. ولكن قصة (مايكروسوفت) البطولية تُعتبر نموذجية في صناعة الإلكترونيات، شركة صغيرة جداً فقيرة الموارد أصبحت عظيمة وغنية. وقد ذهب (غيتس) إلى مدرسة خاصة حيث تفوَّق في الرياضيات وسُحِر في باكورة مراهقته بالحسابات والإحصاءات الشخصية ثم فتنته المرحلة التشكيلية والتوليدية للرياضيات.

وقد ألَّف (غيتس) بصحبة صديق متحمِّس مثله ومن مدينة (سياتل) (بول آلن) نسخة معدَّلة للغة (بيزك) في الكمبيوتر في سنة 1975، وذلك من أجل الحاسوب الشخصي القديم وهو (ميتس أولتير). وعقب هذا النجاح مباشرة شكَّل (غيتس) و(آلن) شركة (مايكروسوفت)، وفي سنة 1977 ترك (غيتس) الجامعة كي يركِّز على الصناعة الجديدة. وقد جاء الاختراق الكبير لهما في سنة 1980 عندما زار موظفان إداريان في (آي بي إم) شركة (مايكروسوفت) وذلك بهدف تكليف الشركة بالعمل على نظام البرمجة (بيزك) من أجل كمبيوترهما الشخصي الجديد، وهو برنامج مستعجل ذي مواعيد إنهاء محددة عسيرة لم يسبق لها مثيل.

وجد جماعة الـ (آي بي إم) رجلاً جذاباً ذا نظارات عالي الذكاء وواضح الشخصية ذي جسد لا يهدأ وحيوية ونشاط ذهني كبير. ولم يتغيَّر (غيتس) عندئذ. فهو يقرأ مجلَّدات ومجلَّدات حتى في اللحظات المعاكسة له، وهو يختص بالقيام بمهام كثيرة في آن واحد، ويجاهد كي يمنح مسيرة (مايكروسوفت) كامل اهتمامه، وهو في ذلك كله يُمضي وقتاً كبيراً على العلاقات العامة. ويبدو أنه ليست له اهتمامات أخرى سوى عائلته وسيارات (البورش) الخاصة به وقصره الرائع المتخم بالتكنولوجيا بجانب البحيرة في (مِديتي) بواشنطن. وتعادل استثماراته خارج نطاق (مايكروسوفت) لوحدها (11,5) بليون دولار. أما أسهمه في (مايكروسوفت) فهي تعادل سبعة أمثال هذا المبلغ المذهل.

إيجاد مستوى ومعيار معيَّن في الصناعة

ولم تبرز هذه الثروة كلها من العمل في لغة (البيزك) بل من حاجة (آي بي إم) الأخرى إلى تشغيل برنامج كمبيوتر خاص لكمبيوترها الشخصي. وهكذا تقدَّم (غيتس) وبكل جرأة بعرض للتعاقد. بعدها تقارب مع شركة برمجيات أخرى وهي شركة منتجات سياتل للكمبيوتر واشترى منها نظاماً للتشغيل اسمه (كيو ـ دوس) اختصاراً لنظام التشغيل القذر والسريع. ثم عدَّله (غيتس) و(آلن) بشكل يلائم حاجات (آي بي إم)، ثم أعادا تسميته باسم (إم إس ـ دوس) أي: نظام تشغيل المنصة الخاص بمايكروسوفت، وسلَّماه إلى (آي بي إم) في مقابل ثمن منخفض نسبياً، وبذلك قطعا الطريق على الشركات المنافسة الأخرى. إن

شراء (غيتس) لنظام (كيو ـ دوس) بمبلغ 50000 دولار فقط فتح الأبواب مشرعة أمام البلايين، ويعود ذلك إلى حد كبير إلى أن (آي بي إم) قد حطَّت من قدر السوق بشكل فادح فيما يتعلق بكمبيوترها الشخصي فوقَّعت عقداً تسمح فيه لمايكروسوفت ببيع البرنامج إلى أي منتج آخر للكمبيوتر الشخصي. وعندما أقلع الكمبيوتر الشخصي باعثاً الذهول عند إداريي (آي بي إم) بسبب نجاحه كان مستقبل ثروة (مايكروسوفت) قد أصبح مؤكداً، مما أثار الحنق المتنامي عند (آي بي إم).

ومع أن مبيعات وأرباح (غيتس) قد تنامت بشكل فلكي مع ظهور (آي بي إم) وكمبيوتراتها الشخصية الملونة، فإن الخطر الداهم والمستمر كان يتمثل في احتمال أن تقطع هذه الشركة ارتباطها الحيوي بنظام (إم إس ـ دوس). وقد حمىٰ (غيتس) شركة (مايكروسوفت) بأفضل ما يمكنه وذلك بمشاركة (آي بي إم) في تطوير نظام جديد للتشغيل هو (أو إس ـ تو) أي نظام التشغيل / 2/ . وعندما بحث إداريو (آي بي إم) في موضوع حلّ الشراكة المتعلقة بـ (أو إس ـ تو)، كان (غيتس) قد فاز بإيقاف التنفيذ وذلك من قبل كبير ضباط الإدارة (جون إيكرز) في حزيران/ يونيو 1986 في حفلة غداء.

الاستيلاء على سوق الكمبيوتر الشخصي

وبعد أقل من ثلاث سنوات اندلعت الحرب بين (آي بي إم) و(مايكروسوفت) بشكل فاضح. وقد نال (غيتس) السيطرة المطلقة

مع إطلاق نظام (ويندوز ثري أو). وباستخدامه نفس التقنية (أي تحويل رموز الكمبيوتر إلى رسوم وأشكال مألوفة) وهو ما جعل نظام (آبل ماكينتوش) أي: وجه الكمبيوتر ذي الأيقونات للتعامل مع البرامج شعبياً، ومع القدرة على إظهار لائحة المحتويات على الشاشة فقد أحرز المنتج الجديد مبيعات وصلت إلى مليون نسخة شهرياً حتى سنة 1993. وهذا ما أعطى المستخدمين مدخلاً قوياً ومحسّناً إلى التطبيقات فاتحاً بذلك باب الفرصة على مصراعيه أمام (غيتس). وقد استطاعت (مايكروسوفت) أن تؤلّف وتبيع خطاً جديداً تماماً لبرامج التطبيقات واستخداماتها من قِبل (ويندوز).

إن المنتجات أمثال (ورد) لمعالجة النصوص و(إكسِل) ذي الورقة المفتوحة لمعالجة الجداول تكاد تكون متواجدة ومهيمنة تماماً كما هو الحال مع (إم إس ـ دوس) و(ويندوز) التي تمتلك 90 بالمئة من نظام التشغيل المتعلق بالكمبيوترات الشخصية. واستمر (غيتس) في مضاعفة ضغوطه. وظهر نظام (ويندوز) الخاص بالإنترنت (إن تي) وهو منتج أقوى يستهدف سوق الشركات والمؤسسات في سنة 1993. ومَثَله كمثل أول طبعة معدلة من (ويندوز) فقد كان (إن تي) يعاني من بعض العيوب الخطيرة. ولكن أسلوب (غيتس) كان دائماً يُطلق النظام أولاً ثم تحسينه بعد ذلك وبشكل جذري إذا دعت الحاجة.

وما نجح في (ويندوز ثري أو) بشكل كبير هو نفسه ما جعل (إن تي) يتفوّق. وحلّقت مبيعات (مايكروسوفت) وأعداد العاملين فيها، ومعها ارتفعت الأرباح وأسعار الأسهم. ومع كل تقدم في

سوق الأسهم المالية كان مليونيرٌ جديد يرتفع من بين صفوف جنود (مايكروسوفت). ولكن كفة ثروة (غيتس) الخيالية رجحت بشكل مثير على كفة مدخرات العاملين، وهو ما وجده (غيتس) لنفسه بنفسه. وقد غطى على سمعته كعبقرية تكنولوجية (وهي ما لا يستحقه) وكرجل أعمال متفوق (وهو ما يستحقه بكل تأكيد) وضعه المادي الذي لا مراء فيه بكونه أغنى رجل في العالم.

تحديّ الشبكة الدولية (الإنترنت)

سواء أكان التزلف والنجاح هما اللذان عتَّما على رؤية (غيتس) أم لا، فإن الشركة بعدما قهرت (آي بي إم) بشكل حاسم كادت أن تهزم نفسها بسبب إخفاقها في التجاوب مع التحدي المبكر والواضح لشبكة (الإنترنت). وبما أن تشغيل الأنظمة وتطبيقاتها يمكن تحميلها من منطقة تجميع المعلومات وتبادلها (السايبرسبيس) فقد كان يمكن تقويض هيمنة (مايكروسوفت) كما جرى مع (آي بي إم) من قبل. وبحلول سنة 1995 أصبح (غيتس) واعياً ومدركاً لهذا التهديد: فإحدى المذكرات التي لا تحصى والتي كان يرسلها بالبريد الإلكتروني وبشكل منتظم إلى (آل مايكروسوفت كما كان مستخدمو مايكروسوفت يسمّون) كانت تدعى «موجة مدّ الإنترنت». وقد أوْلَت هذه المذكرات «أعلى مستوى ممكن من الاهتمام والأهمية» للتقنية الجديدة.

بيت المستقبل المرغوب بيئياً

كان العقار الخاص بـ (غيتس) على بحيرة واشنطن لا يزال قيد الإنشاء عندما انتقلت إليه عائلته خلال سنة 1998. وبعدما بُني المنزل من خشب دوغلاس المستصلح أصبح هذا القصر الريفي ذو الـ 40000 قدم مربَّع يُدار بالكمبيوتر من الداخل.

وقد حُوِّلت بلايين الدولارات من رأس المال التنموي في الهجوم على السوق الجديدة لا سيما على شركة (نِت سكيب) التي كانت قد منحت متصفحي (الإنترنت) لديها هذا الحق مجاناً في البداية ثم سحبته منهم في انطلاقة نيسان/ أبريل سنة 1994 بمبلغ 5 بلايين دولار من تمويل السوق حتى كانون الأول/ ديسمبر من السنة التالية. كان لدى (غيتس) سلاح قوي

جداً لاستخدامه. وكانت الطريقة تقضي بأن يُجبر مصنّعي الكمبيوتر الشخصي (پي سي) أن يحمِّلوا مقدماً متصفّح مايكروسوفت على آلاتهم كجزء لا يتجزأ وثابت من (ويندوز 95) البديل الواسع الانتشار لـ (ويندوز ثري أو).

ومع أن ذلك عملاً ناجحاً من الناحية التجارية فقد جعل الهجوم على (نِت سكيب) شركة (مايكروسوفت) معرَّضةً للمساءلة القانونية. ووصل قانون مكافحة التكتلات والاحتكارات الصادر عن حكومة الولايات المتحدة إلى المحاكم مُحْدِثاً شهوراً من الإحراج الكبير والأحكام المعادية بالنسبة إلى (غيتس) وشركته وذلك في سنة 1998. والآن وبعد زواجه من موظفة سابقة في (مايكروسوفت) وهي (ميليندا فرنش) وله منها طفلان، فقد وقف (غيتس) على مفترق طرق. هل ستخرج الصناعة التي بذل كل ما يستطيع (وأكثر من أي شخص آخر) كي يوجدها من بين يديه وخارج نطاق سيطرته؟ هل يمكنه أن يعاند المدّ المتنامي من الآراء غير المحبّذة له؟

شخصية تنقصها الشعبية

لقد جرت مشاعر الناس في اتجاه معاكس لـ (غيتس) بسبب نجاحه بالذات. قد يكون البعض وببساطة قد حسده على ثروته الهائلة، أو ربما يقول بعضهم إن هذا الشخص كثير البلايين لم ينشر أمواله بسخاء تسمح به ثروته. وقدرة (مايكروسوفت) ضمن

صناعة الكمبيوترات على سحق منافسيها وعلى فرض شروطها في المتاجرة مع مصنّعي الكمبيوترات الشخصية قد أثار أكثر من مجرّد الحسد. فقد أصبحت الشركات قلقة حول أرباحها وزبائنها الخاصين بها مع توسيع (مايكروسوفت) لمجال منتجاتها وسقف طموحاتها. أما بالنسبة إلى مشتري الكمبيوترات الشخصية فإنهم قد تقبلوا بشكل ممتاز برنامج (مايكروسوفت) الداخل ضمن مشترياتهم كأي حقيقة حياتية.

ولكن كثيراً من «التقنيين» كانوا يشعرون أن (غيتس) كان قوة شديدة البأس واحتكارية أكثر مما يجب، وأن فرض قبضته على عالم التقنية كان عثرة في وجه تقدمات مهمة، وأنه قد أوقع المستخدمين في فخ تحسينات الأداء المكلفة لنظام هو في جوهره نظام بالٍ وقديم. وأدّى هذا المزاج إلى عداوة مفتوحة عبَّرت عن نفسها بطرق متعدِّدة تتراوح ما بين هجمات على الإنترنت وبين كتب منشورة مثل كتاب (البرابرة الذين يقودهم بيل غيتس: مايكروسوفت من الداخل). وقد أعطى كتاب «فن الطهي» وصفةً «لتحطيم احتكار بيل غيتس» من خلال نظامه «ويندوز» (دون كسر لأي نوافذ)، وذلك من خلال نظام تشغيل (لينوكس) لأقراص الكمبيوتر. وقد ألمح هذا العنوان إلى نظام جديد متوفر بشكل مجاني على الإنترنت أو عن طريق وسطاء كانوا يتقاضون رسوماً أقل بكثير مما كانت (مايكروسوفت) تتقاضاه مقابل نظامها الخاص بها.

الكفاح ضد قانون منع الاحتكار

وقع اختيار رجال التكنولوجيا على (لينوكس) باعتباره الاستجابة المناهضة لصلوات (غيتس) وأدعيته. وقد تبنَّى عدد لا بأس به من المستخدمين في الشركات (لينوكس) أيضاً: ذلك لأنه يتمتع بمزايا هامة على نظام (مايكروسوفت). وهذا ما منح (غيتس) سلاحاً آخر لمواجهة سلطات منع الاحتكار. وناقش بأن (مايكروسوفت) ليست شركة احتكارية مع وجود منافسة أشد من ذي قبل ومع كسب المستهلكين من تدني الأسعار وارتفاع مستوى الأداء. ولكن لسوء الحظ لم تدعم هذا الدفاع مقابلات مسجلة مع (غيتس) حجبتها المحاكمة في واشنطن وقد سلّطت التسجيلات مع غيرها من الدلائل كالبريد الإلكتروني الداخلي الضوء على شخصية (غيتس) فأظهرته غير جذاب بل وواضح المراوغة أحياناً.

وكنتيجة للمحاكمة ضد الاحتكار فقد أُجبر (غيتس) كما لم يحدث من قبل في الحَلَبة العامة والجماهيرية. وبعد رد فعلٍ متردِّد، كان جوابه تصميمه المعتاد. وقد أظهرت المقابلات التلفزيونية أمامنا شخصاً مرتاحاً مبتسماً دون أقل إشارة إلى أنه يدافع عن نفسه. وفوق ذلك فقد قرَّر (غيتس) وزوجته أن يقيما مؤسسة خيرية ضخمة لضبط وتوزيع معظم ثروتهما: ويمكن لهما أن يأملا (كما فعل آل روكفلر قبلهما) أن يعيدا قلوب الجماهير إلى طرفهما.

وأجرى (غيتس) إعادة تنظيم رئيسية في شركة

(مايكروسوفت) ليفوّض بجزء أكبر من قوته للآخرين بينما يتابع هو توجيه التحول الهائل في استراتيجية الشركة باتجاه (الإنترنت). ويبقى (غيتس) في إحدى هذه المهمات مصمماً تماماً على مواصلة القيام بعمله الذي يحبه في الصناعة والذي كانت له اليد الطولى فيه من زمن طويل، وهذا أكثر بكثير مما قدمه أي شخص آخر.

obeikandl.com